

الوحي واسباب النزول دراسة في الدور والعلاقة والتاثير

ا. عماد الهلالي

مجلة المنهاج العدد : 46

المنهاج العدد 46 :

الطائفية والوعي الديني ماذا حل بالمشروع غير الطائفي في المجتمعات الاسلامية؟
الشيخ حيدر حب الله
التخريجات الفقهية للمعاملات البنكية القسم الثاني
السيد محمد باقر الصدر
المجتمع في النص القرآني من المفهوم الى المصداق
الشيخ احمد مهدي زاده
دراسة في الدور والعلاقة والتاثير
الهلالي ا. عماد
ببلوغرافيا السيرة الفاطمية مطالعة في الدراسات الاسلامية حول فاطمة الزهراء(س)
ا. محمد نوري
استثمار واقعة الطف في المسرحية العربية مسرحية (ثانية يجي الحسين) انموذجا
د. محمد حسين حب
مسألة الزمان في الفلسفة الاسلامية مقارنة بين الخواجوني والخوانساري
نور ا. محمد
البسمة دراسة تحليلية في ضوء علوم الشريعة والقرآنيات
عابدينني الشيخ احمد
محمد باقر الصدر .. السيرة و المسيرة قراءة في كتاب
السيد عبد السلام زين العابدين
لبينات التفسير السلفي بين النفي والاثبات
نजारزادگان د. الشيخ فتح الله
ضروريات الدين والمذهب دراسة في المنطلقات الفقهية لظاهرة التكفير القسم الاول

الشيخ محمد هادي آل راضي
مسألة الايمان والازمة الطائفية
السيد ا. كمال
الاسلام الاعمى والاسلام المستنير قراءة في خطاب الامام الخامنئي
الاسدي ا. مختار
ضروريات الدين دراسة فقهية في معايير الكفر والاسلام
رضا الشيخ سليمان علي
السلفية الدينية والفتنة الطائفية دراسة في المنطلقات والدوافع
ا. مجيد محمد علي
دار السيدة المعصومة(ع) النسوي في مدينة قم، يواصل نشاطه الثقافي
معرض طهران الدولي للكتاب في دورته العشرين
المشهد الادبي في مؤلفات الامام (ره) في ندوة بدمشق
كشف علمي جديد يؤكد ان القرآن الكريم يحوي شفرة رقمية تحميه من التحريف
مؤتمر لمناقشة واقع الفضائيات الاسلامية بالكويت
اصدارات

مقدمة المسلمين زمن الدعوة المحمدية من قضايا او عما القى على الرسول من اسئلة مثلت اسبابا مباشرة لنزول الوحي.

والحق ان الخوض في هذه المسألة لا يخلو من بعض الصعوبات، اهمها ان الوحي مفهوم مفارق ممثل لركيزة اساسية من ركائز الدين الاسلامي. ولكنه في الوقت نفسه مجسد في نص يتداوله المؤمنون خاصة بعد ان استحال القرآن مصحفاً ((155)) ولا شك في ان الانتقال من ((المتعالي)) الى ((المحايت)) ((156)) قد استفز القدامى للنظر في اشكال الوحي وطرقه.

و-اختلفوا في هذا الباب اختلافاً.

وفضلاً عن ذلك فان معرفتنا بالاطار التاريخي الذي نزل فيه الوحي معرفة غير مباشرة، لان المؤلفات التي تصف ذلك الاطار التاريخي الفت في وقت متاخر ((157)). ولذلك فهي تعكس/تمثل اصحابها للوحي المنزل على النبي. ونعتقد ان اقدم مصدر جدير بالثقة في تعريفنا بموضوع الوحي هو القرآن بلا منازع، ولكن دون استبعاد ما احتفظت لنا به المؤلفات الاسلامية القديمة من اخبار تهم الوحي استبعاداً كلياً او قبولها على علاقتها دون ادنى سؤال عن قيمتها التاريخية الوحي لغة ((158)).

قال في الاساس: اوحى اليه ووحى اليه بمعنى، ووحيت اليه ووحيت اذا كلمته بما نخفيه عن غيره، ووحى الله الى انبيائه،(واوحى ربك الى النحل) قال الراغب: اصل الوحي الاشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: امر وحي، وذلك يكون

بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، قد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)، أي أشار إليهم ولم يتكلم.

فقد قيل: رمز. وقيل: اشارة، وقيل: كتب ((159)).

فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: انه الاعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه اليه، بحيث يخفى على غيره، ومن وحي الائمة بالجوارح قول الشاعر:

نظرت اليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاته فأوحى اليها الطرف اني احبها فأثر ذلك الوحي في وجناتها ((160)) وكلمة ((وحي)) موجودة عديد المرات في القرآن لوصف ماهية الخطاب القرآني وعلاقة الله بالنبي محمد والالهامات الموجهة الى الانبياء من قبله ((161)) نظريات في الوحي والذي ينبغي التنبيه اليه ان دراستنا للوحي من خلال علم اسباب النزول تسعى الى تجاوز المواقف والنظريات من الوحي التي ليست لها مرجعية موضوعية.

النظرية التقليدية اولا: موقف ايماني يعتقد اصحابه ان القرآن كلام الله عينه لم يكن فيه الرسول الا مبلغا له دون ادنى تدخل منه. في هذه النظرية ما ان تذكر الوحي حتى يتبادر الى ذهنهم ان الله مستقر في الاعالي في نقطة في السموات السماء السابعة مثلا أبعيدة جدا جد، فيما النبي يعيش على الارض، واذا ما اراد الله ان يوصل تعاليمه الى النبي احتاج الى موجود يقطع هذه المسافة، ولا بد ان يكون الموجود ذا جناح وریش ليكون بمقدوره قطع هذه المسافة الشاسعة، كما لا بد وان يتمتع بالعقل والادراك لكي يكون بمستطاعه ان يوصل للنبي الامر الصادر عن الله ((162)).

وبذلك احتفظ المصحف العثماني بالقرآن كله وبالشكل الذي نزل على محمد غ. وغني عن البيان ان هذا الموقف فرض سيادته على الفكر الاسلامي قديما ((163)).

النظرية التنويرية ثانيا: ثم تفسير آخر يقع في النقطة المقابلة للنظرية العامية (التقليدية)، وهو لا يتوخى انكار النبوة، فالذي يطلقه لا يريد الانكار، بل اعتمد هذا التفسير لنفسه وحسب.

لقد كتب السيد احمد خان الهندي تفسيراً على نمط خاص، وهو يتبنى تقريبا هذا التفسير الذي سنعرضه، كما تبناه افراد آخرون.

لقد شاء بعض الناس ان ينظر الى الوحي من قبل الله ونزول الملائكة والتشريع السماوي وجميع ما يتصل بذلك على انها مجرد تعابير مجازية، حيث لا يمكن التحدث مع عوام الناس الا بمثل هذه اللغة.

يقوم منطق هؤلاء على ان النبي نابغة اجتماعي، بيد انه نابغة محب للخير، وهذا النابغة الذي وهبه الله هذا النبوغ ظهر في المجتمع، وراح يتامل باوضاع مجتمعة، ويرصد ما يحيط بالناس من اوجاع وضروب وفساد، وعندما يدرك ذلك كله وينفعل به يفكر بتغيير اوضاع الناس. وبالنبوغ الذي يحظر به يرسم للناس طريقا صحيحا جديدا ويبينه لهم.

وعندما يسال هؤلاء: اذن، ما هو الوحي؟ وماذا يعني الروح الامين وروح القدس؟ يردون بان روح القدس ليس الا الروح الباطنية للنابغة، والعمل الروحي الذي يتمتع به ويسبغ عليه الالهام.

فالنابغة ياخذ الالهام من باطنه وليس من موضع آخر. ولما كانت هذه الافكار تنبثق من اعماق روحه ثم تنطلق الى سطحه، فنحن نقول ان الروح الامين جاء به، ولما كان الله هو مصدر جميع الافعال، وكل شي بيده، فانه اذن هو الذي بعث النابغة، لان اي فعل لن يكون الا ان يشاء الله.

وبهذا يكون معنى الوحي في هذه النظرية هو الانبثاق من عمق فكر النبي الى ظاهر فكره.

واذا سالنا هؤلاء ما هو الدين؟ يجيبون: لما كانت القوانين التي وضعها النابغة قوانين صحيحة وصالحة حق، وهي مفيدة لسعادة المجتمع في ذلك الوقت فهي اذن دين من قبل الله. ((164)) نظرية محمد اقبال وعبد الكريم سروش ينطلق الدكتور سروش لنظرية الوحي من خلال نظرية اقبال في هذه المسألة، فينقل رواية عن كتاب مفاتيح الغيب لصدر الدين الشيرازي ((ان الله عبادا ليسوا بانبياء تغبطهم النبوة)) قائلا:

يعني هؤلاء يستوحون معارف غيبية في واقعهم الباطني، ربما تكون مرتبتهم اعلى من بعض الانبياء الالهيين الذين ورد ذكرهم في تاريخ النبوات، ومع ذلك فان هؤلاء العباد ليست لديهم رسالة خاصة وشريعة سماوية لتبليغها للناس ان منبع الخطاب النبوي هو من جنس الوحي، والوحي بدوره كما يرى اقبال هو من جنس الغريزة اي: الدوافع النفسية أولكن مضمونه ومحتواه خطاب عقلائي، اي: انه يدفع بالانسان والبشرية لسلوك خط العقلانية والاستفادة من العقل الاستقرائي والتامل في عالم الطبيعة والتاريخ.

فعند ظهور هذه التاملات والمفاهيم، ووصول العقل الى مرتبة الحجية انتهت حجة الغريزة او الوحي في ما تمثله من مصدر معرفي للانسان، وكما يقول محمد اقبال: ان هذا المعنى يعد من كمال النبوة حيث ادرك النبي ان التاريخ البشري لا يتحمل بعد الان ظاهرة النبوة وقد بدأت مرحلة العقلانية بالظهور، وينبغي على الانسان ان ينظر الى مضامين الوحي والتجارب الدينية، بل الى جميع المعارف البشرية برؤية نقدية... والانسان المعاصر يستطيع من خلال الاستفادة من التراث البشري ان يقود سفينته رغم التحديات والظروف الصعبة ويوصلها الى ساحل الامان ((165)).

ويضيف الدكتور سروش قائلا:

ان متعلق الوحي والخاتمية هي الشخصية الحقوقية للنبي.

اي: ولايته التشريعية، بمعنى: ان النبي نفسه لا يرى انه ملزم ومكلف باقامة الدليل والاتيان بقرينة وشاهد، ومن هنا كان الوحي الخطاب الديني خطابا ولائيا وليس خطابا برهانيا.

وتوضيح ذلك: ان الكلام عندما يستمد حجته من عملية الاستدلال والقواعد المنطقية، فان ذلك يعني قطع الرابطة مع الوحي، بحيث يكون الميزان والمعيار لصحة ذلك الكلام والخطاب هو ميزان الدليل والبرهان، فان كان دليلا مقنعا فسوف نقبل المدعى والا فلا.

فالانبياء من النادر ان يتحركوا في مجال الوحي على مستوى الاستدلال، فالعمدة في الوحي هو شخصية النبي وتجربته الدينية او تعاليمه السماوية، واساسا فان هذا المعنى للوحي هو شان النبوة ((166)).

النظرية الاستشراقية ثالثا: جنح ممثلو هذه النظرية من بعض اهل الاستشراق الى طمس الخاصية المفارقة في الوحي، فاعتبروه كلام محمد لا كلام الله، وعينوا مصادر ثقافية عديدة استقى منها النبي مادة القرآن ((167)).

يقول المستشرق ((وليم مونتجمري وات)): نجددخج ژرچس شزدرخژرذ ان القرآن كتاب بشري، وان الوحي داخلي، لذلك كان محمد مسيطرا عليه، وبامكانه استدعاؤه وصرفه في اي وقت يشاء. فمخيلة محمد كجهاز تختزن فيه المعلومات ثم تستدعي حسبما يريد الانسان ((168)).

والوحي مستفاه من المحيط الجماعي الذي عاش فيه قبل البعثة... وما كان الملك ((جبرائيل)) الا خيالا ادى الى حضور تلك الموضوعات الى وعيه، في الحالة التي يسميها وحي . ((169)) ويقول المستشرق ((درمنغام)): نذخخذحذحذا ب القرآن فيض من وجدان محمد، وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله وامام عينه.

والوحي ليس الا وحي من داخل نفس الرسول لا من مصدر خارجي، اي من العقل الباطن لا من رب العالمين ذهب هذا المستشرق الى نظرية الفيلسوف ((ارسطو)) الذي ذهب الى ان الجسد سجن النفس، وان الانسان اي انسان اذا اجاع الجسد وامرضه، انطلقت نفسه وعندها تتصل بالعالم العلوي فتسمع اصواتا وترى اشباحا... هذه نظرية النبوة عند الاغريق ((170)).

ولقد فرق المستشرق الالماني الدكتور تيودور نولدكه ((ححدثت زرحرخت)) بين الوحي والالهام تفريقا فيه مزيج بين الواقع والصوفية، فعد الوحي خاصا بالانبياء، والالهام خاصا بالاولياء، اذ لا يوحى اليهم ((171)).

نظرية معروف الرصافي عن الوحي كذلك يعتبر الشاعر والمفكر العراقي معروف الرصافي الوحي بانه كلام محمد لا كلام الله، حيث يقول: ان شخصية محمد شخصية ذكية، ذو عقلية ممتازة...

ويقول: جاء في كتب السير انه كان دائم الفكر، متواصل الاحزان، يحب الخلوة، فكان يذهب الى جبل حراء فيبقى وحده في غاره الايام والليالي، ولا شك انه لم يكن له في ذلك الغار شغل عن التفكير، ومما يدل على انه من المفكرين قوله في القرآن: (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الاباب).

وكان محمد شديد الفطنة، شديد الانتباه لما يجري حوله من الامور، فلا يفوته من الذين حوله همسهم، ولا ما يبدو على وجوههم من علامات السخط والرضا ((172)).

كان محمد واسع الخيال قويه جد، وكان تفكيره وخياله فرسي رهان يجري احدهما مع الاخر، فاذا تفكر في امر تخيله وتصوره، واخذ يصوره للعيان حتى يكون كأنه يراه بعينه ويسمعه باذنه ويلمسه بيده.

واعظم دليل على سعة خياله وقوته ما جاء في القرآن وفي الاحاديث النبوية من وصف الجنة وجهنم... ولا ريب ان الجنة التي وصفها محمد باوصافها الباهرة المعلومة انما هي من بنات خياله الواسع القوي، لانها بهذا الشكل المبهج العجيب غيرمذكورة في التوراة ولا في الانجيل، فجنة محمد جديدة بان تكون المثل الاعلى للسعادة المخيلة في الحياة.

ومن الدليل على قوة خياله وانه في طريق تفكيره اذا تخيل شيئا تجسم له في ذهنه حتى صار يراه بعينه ويسمعه باذنه ماجاء في الاخبار عن بدء الوحي من رؤيته جبرائيل في افق السماء، فقد ذكر الرواة عنه انه قال:

((فخرجت اي من غار حراء حتى اذ كنت في شط من الجبل اي جانب منه سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد انت رسول الله وانا جبرائيل، فوقفت انظر اليه فاذا جبرائيل على صورة رجل صاف قدميه)) ((173)).

فعلى راينا يكون الوحي كله بجميع اقسامه وصوره كلام محمد، وليس كونه وحيا الا بمعنى انه الهام من الله، وان زعموا ان ذلك كفرا. واذا كان قول الحقيقة كفرا كما يزعم المتدينون تدينا اعمى، فلينسبنا من شاء منهم الى الكفر، وانما اقول لهم ماقلت قبلا:

هل الكفر الا ترى الحق واضحا فتضرب للانظار من دونه ستر وان تبصر الاشياء بيضا نواصعا فتظهرها للناس قانية حمرا ((174)) النظرية الحسية رابعا: تنطلق هذه النظرية من قناعة فحواها ان لجميع افراد البشر ادراكا وشعورا وحسا باطنيا خاصا واطافيا علاوة على العقل والحس العاديين ((175)).

ولكن غاية ما في الامر ان هذا الحس او الشعور الباطني يتفاوت بين انسان وآخر، بحيث يبلغ في بعضهم درجة شديدة من القوة تؤهل صاحبها للارتباط الحقيقي الواقعي مع العالم الاخر، اما ما هو هذا العالم فلا ندري؟ والذي يحصل نتيجة هذا الارتباط هو

ان تفتتح لهذا النمط من البشر ابواب العالم الاخر على وجه الواقع. ومن ثم فان المسألة لا تقتصر على الفعالية الوجودية للانسان ونبوغه الخاص، بل غاية دوره في العملية ان له استعدادا للارتباط بالخارج وبما وراء هذا العالم وحسب.

وهذه الخاصية الحس الاخر والاستعداد المتميز للارتباط بالعالم الاخر لا تقتصر على الانبياء بنص القرآن، لان القرآن صرح بنفسه بوجودها بشكل قوي جدا عند غير الانبياء ايض، مثل والدة عيسى ووالدة موسى ... ((176)).

النظرية الحسية عند الشهيد الصدر يقول الشهيد محمد باقر الصدر بان الوحي ضرورة من ضروريات تخليد الانسان على وجه الارض، ولهذا خلق الله الانسان، وادعه الاستعداد الكامل، والارضية الصالحة، بافاضة هذه الموهبة منه سبحانه.

والانسان خلق حسيا اكثر منه عقلي، خلق يتفاعل مع حسه اكثر مما يتفاعل مع عقله... وهذا يعني ان الحس اقدر على تربية الانسان من النظر العقلي المجرد، ويحتل من جوانب وجوده وشخصيته، وابعاد مشاعره وعواطفه وانفعالاته، اكثر مما يحتل العقل ((المفهوم النظري المجرد)) ((177)).

الحس المرابي للانسانية بناء على هذا كان لا بد للانسانية من حس مرب زائد على العقل والمدركات العقلية الغائمة الغامضة، التي تدخل الى ذهن الانسان بقوالب غير محددة وغير واضحة.

الحس هو المرابي الاول دائم، ولكي يمكن تربية الانسان على اساس حس يبعث في هذا الانسان انسانيته الكاملة، الممثلة لكل جوانب وجوده الحقيقية، كان لا بد من خلق حس في الانسان، يدرك تلك القيم والمثل والمفاهيم، ويدرك التضحية في سبيل تلك القيم والمثل ادراكا حسيا، لا ادراكا عقليا بقانون الحس والقبح العقليين.

وهذه الارضية، او هذا الاستعداد الكامل كان الارتباط المباشر مع الله سبحانه وتعالى، لكي تنكشف كل الصحف، كل الستائر، عن كل القيم، وكل المثل، وكل هذه الاعتبارات والاهداف العظيمة لكي ترى رؤية العين، وتسمع سماع الاذن، لكي يلمسها بيده، ويراهها بعينه ((178)).

اذن، هذه الاشياء والقيم الحسية اذا اصبحت امرا واقعا في اشخاص معينين، يختصهم الله تعالى بعنايته ولطفه واختياره، وهؤلاء هم الانبياء والمرسلون.

وهذا الحس هو الذي استطاع ان يربي شخص النبي (ص) وسائر الانبياء، من آدم ونوح وابراهيم ولوط وهود وموسى وعيسى، واعد لهم لكي يكونوا الممثلين الطليعيين، والرواد الاوائل لخط هذه القيم والمثل الانسانية، والاهداف الكبيرة ((179)).

هذا الحس رباهم اولا بالذات، ثم خلق وجودا حسيا ثانوي، هذا الوجود الحسي الثانوي الوحي كان هو المرابي للبشرية.

خلال تلك الشهادات تجربة فريدة افتقدتها الاجيال التالية لمجتمع الدعوة. فاعادوا بناء طور من اطوار الاسلام في بواكيره، خاصة ان نص المصحف لم يسعفهم بتفاصيل عن ذلك الطور. ويبدو في تقدير القدامى ان الرغبة في التعرف الى علاقة الرسول بالوحي ظهرت لدى الصحابة انفسهم باعتبارهم شاهدين مباشرين على التنزيل. ولذلك تمنى بعضهم معاينة الوحي قاتلا: ((ليتني ارى رسول اللّٰه حين ينزل عليه الوحي)) ((189)).

وفعلا فقد انصرف المفسرون وعلماء القرآن الى دراسة هذا المبحث بمناسبة نظرهم في اسباب نزول القرآن. ونقلوا نصوصا مصورة لحال الرسول عند نزول الوحي عليه بعد ما يلتقى عليه من اسئلة او اثر ما يحصل في واقع المجتمع وقتئذ من احداث ونوازل تستدعي حكما او بيانا قرانيا. وبالامكان الالمام بحال الرسول تلك عبر المستويين التاليين:

المشاعر النفسية، والعلامات الجسدية.

1- المشاعر النفسية تضمنت بعض اخبار اسباب النزول اشارات الى الحالة النفسية التي يكون عليها الرسول غ حين يفاجئه الوحي. من ذلك شعوره بالشدة والتوتر النفسي. وهذا ما ينقله الطبري عند تناوله سبب نزول الايتين الاولى والثانية من سورة الفتح (45)، اذ يقول عبد الله بن مسعود متحدثا عن الرسول: ((فبينما نحن نسير اذ اتاه الوحي)). وكان اذا اتاه اشتد عليه. فلما سري عنه اخبرنا انه انزل عليه: (انا فتحنا لك فتحا مبينا # ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) ووجد القدامى ما يؤكد هذا الشعور بالشدة التي تنتاب الرسول في قول ابن عباس متحدثا عن سبب نزول الايتين 16 و 17 من سورة القيامة (75): ((كان رسول اللّٰه يعالج من التنزيل شدة.

وكان مما يحرك شفثيه. فانزل الله تعالى:

(لا تحرك به لسانك لتعجل به (#) ان علينا جمعه وقرآنه) على ان هذا الشعور النفسي بالشدة، قد يكون اخف وطاة على الرسول من ذلك الاحساس بالرعب والفرع الذي الم به اول عهده بالوحي. فلم تعتد نفسه وقتئذ على خوض مثل هذه التجربة المفارقة. وفي ذلك يقول الرسول مشيرا الى سبب نزول الايات الخمس الاولى من سورة المدثر (74): ((بينما انا امشي، اذ سمعت صوتا من السماء. فرفعت بصري، فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض. فرعبت منه. فرجعت. فقلت: زملوني...)) ((190)).

تخلص الرسول من الحالات الشديدة عند نزول الوحي والظاهر في طور الوحي المدني، اي بعد مرور اكثر من عقد على بدء تلقيه الرسالة. وربما استبد به شعور خاص لا يعكس معاناة نفسية بقدر ما يعبر عن لذة خاطفة مرغوب فيها.

ولناخذ شاهدا على ذلك وصف عائشة لحال الرسول عند نزول الايات (11 22) من سورة النور (24): ((فشخص بصر رسول الله الى السقف. وكان اذا انزل عليه وجد)) ((191)).

والذي وقر في اذهان القدامى ان في لوذ الرسول بالصمت برهة اثر سؤال يوجه اليه امارة على تلقيه الوحي. اذ يكون في تلك اللحظة منشغل البال والخطر. وهذا ما استنتجه عبد الله بن مسعود عند سبب نزول الاية 85 من سورة الاسراء (17): ((بيننا مع النبي(ص) في حرث، وهو متكئ على عسيب، اذ مر اليهود.

فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم اليه وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشي تكرهونه فقالوا: سلوه، فسالوه عن الروح. فامسك النبي(ص) فلم يرد عليهم شيئاً. فعلمت انه يوحي اليه. فقامت مقامي. فلما نزل الوحي قال:

(ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا).

العالم الداخلي للرسول هذه اذن اهم المشاعر النفسية التي لاحظها الصحابة على الرسول او عبر عنها هو ذاته في عملية تقبل التنزيل. ولما كانت هذه المشاعر متصلة في الغالب بالعالم الداخلي للرسول، فانه يصعب احيانا على الصحابة رصدها او الانتباه اليها.

ولذلك تركز اهتمامهم على ما يبدو على الرسول من علامات جسدية تشير في تقديرهم الى طبيعة الوضع الخاص الذي يكون عليه لحظة تقبل الوحي.

2- العلامات الجسدية:

احتفظت لنا مجاميع الحديث وكتب التفسير ومصنفات علوم القرآن بشهادات للصحابة تصف العلامات الجسدية البادية على الرسول حينما ينزل عليه الوحي. وكان الخوض في اسباب النزول مناسبة لنقل تلك الشهادات على فرض حقيقتها التاريخية. ولعل من ابرز الاعراض التي كانت تظهر على الرسول في ذاك الظرف الاستثنائي تصيب العرق، وهو علامة مادية على المكابدة التي يلقاها والمشقة التي تعتريه عند تلقيه الوحي. وقد راجت عند القدامى الرواية المنسوبة الى عائشة التي تصف فيها حال الرسول لحظة نزول الوحي عليه قائلة: ((فوالله ما رام رسول اللّٰه منزله ولا خرج من اهل البيت احد حتى انزل الله تعالى على نبيه فآخذه ما كان يأخذه من البرحاء ((192)) عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي انزل عليه من الوحي...)) ((193)). وتؤدي به هذه الحالة، في الغالب، الى الشعور بالارتعاد.

فمما ترويه خولة خادمة النبي، في سياق حديثها عن سبب نزول سورة الضحى (93) قولها: ((فجاء نبي الله ترعد لحياه أوكان اذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة فقال: يا خولة ((دثريني)) ، فانزل الله هذه السورة)) ((194)).

حالات اخرى للرسول اثناء نزول الوحي وعثرنا في اخبار اسباب النزول على صورة اخرى عن حال الرسول متمثلة في احمرار وجهه او اصفراره في بعض الروايات وتربده ((195)). وعادة ما تكون هذه الحال مقدمة لما ينتاب الرسول من غشي او سبات ربما يستغرق ساعة من الزمان. فهذا عبادة بن الصامت (ت 34ه) يقول:

((كنا جلوسا عند النبي(ص) اذ احمر وجهه. وكان يفعل ذلك اذا نزل عليه الوحي. فاخذه كهيئة الغشي لما يجد من ثقل ذلك))
(196)). ولم يبعد الرازي عن هذه الصورة في وصف تقبل النبي للوحي. فقد ((كانت تغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي،
فيغير وجهه ويصفر لونه وتعرض له حالة شبيهة بالغشي)) ((197)). .

وقد ينزل الوحي على الرسول دون ان يلم به من الاعراض سوى ما ياخذه من نوم خفيف لا يجد فيه معاناة. وفي ذلك يقول
انس بن مالك واصفا حال الرسول عند نزول سورة الكوثر: بينما نحن عند رسول اللّٰه اذ اغفى اغفاء. ثم رفع راسه متمسما.
فقلنا: ما اضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت على أنفا سورة. فقرا: (بسم الله الرحمن الرحيم (#) انا اعطيناك الكوثر).

وضع يد الرسول على جبهته:

ويدرك الصحابة وقت تقبل الرسول للوحي من علامات اخرى غير ما ذكرن، من قبيل وضع يده على جبهته. وهذا ما يرويه
عبد الله بن مسعود ذاكرا سبب نزول الاية 85 من سورة الاسراء (17) ((198)) ، او من نحو شخوص بصره. ودونناقول ابن
عباس متحدثا عن سبب نزول الاية 90 من سورة النحل (16): بينما رسول اللّٰه بفناء بيته بمكة جالس، اذ مر به عثمان بن
مطعون، فكشرا الى رسول اللّٰه. فقال له: الا تجلس؟ قال: بلى. فجلس اليه مستقبلا. فبينما هو يحدثه اذ شخص بصره الى
السماء.

فنظر ساعة واخذ يضع بصره حتى وضع على يمينه في الارض، ثم تحرف عن جليسه عثمان الى حيث وضع بصره. فاخذ
ينغض ((199)) راسه كأنه يستفقه ما يقال له، ثم شخص بصره الى السماء كما شخص اول مرة. فاتبعه بصره حتى توارى في
السماء.

واقبل على عثمان كجلسته الاولى. فقال: يا محمد، فيما كنت اجالسك وأتيك، ما رايتك تفعل فعلتك الغداة. قال: وما رايتني
فعلت؟ قال: رايتك تشخص بصرك الى السماء، ثم وضعته حين وضعته على يمينك، فتحرفت اليه وتركتني... قال: اوفطنت الى
ذلك؟ قال عثمان: نعم. قال: اتاني رسول الله جبريل أنفا وانت جالس. قال: رسول الله؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال
لي:

(ان الله يامر بالعدل والاحسان وابتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون).

قال عثمان: فذلك حين استقر الايمان في قلبي واحببت محمد ((200)). .

استغراب الرسول يستفاد من هذا الشاهد ان الرسول يكون غير واع بما يبدو منه من افعال او ما ياتيه من تصرف لحظة اتصال جبريل به وتبليغه الوحي. ولذلك استغرب الرسول من تفتن عثمان بن مظعون (ت 2هـ) الى الحالة التي كان عليها وقتئذ.

ويمكن ان تتحول معاينة الصحابي لنزول الوحي على الرسول الى احساس شخصي مباشر ينسجم مع التصور القديم لمفهوم الوحي. وفي هذا السياق يقول زيد ابن ثابت اثناء سرده سبب نزول الاية 95 من سورة النساء (4) « : ((... فانزل اللّٰه على رسوله(ص) وفخذه على فخذي. فتقلت على حتى خفت ان ترض فخذي، ثم سري عنه، فانزل الله...)) ((201)).

ولا يقتصر هذا الاحساس بثقل الوحي على عالم الانسان، وانما يشمل ايضا عالم الحيوان. من ذلك مثلا ان الاية الثالثة من سورة المائدة ((202)) ((نزلت في يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، ورسول اللّٰه واقف بعرفة على ناقته العضباء. فكاد عضد الناقة ينقد من ثقله، فبركت)) ((203)). ومما يؤكد الوجود المادي للوحي من منظور القدامى ان النبي مثلما يقول عمر بن الخطاب ((اذا انزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل. وانزل عليه يوما فمكثنا ساعة. فسري عنه...)) ((204)).

هذه اذن نماذج ممثلة للحال التي يكون عليها النبي عند تقبله الوحي استقيناها من اخبار اسباب النزول. والمؤكد ان المفسرين والمحدثين وعلماء القرآن قد قبلوها على علاقتها بما ان رواها من الصحابة الذين شاهدوا بحضورهم على نحو ما يرويها ابو هريرة: ((كنا جلوسا عند النبي(ص)، فنزلت عليه سورة الجمعة)) ((205)) ، و... .

صور القدامى لحظة نزول الوحي ويحسن بنا بعد هذا العرض ابداء ملاحظات واستنتاجات في شأن الصورة التي رسمها القدامى للرسول غ لحظة نزول الوحي عليه. ويشغلنا في هذا المقام سؤال مهم: ما الذي يبرر اهتمامهم بوصف حال النبي في تلك اللحظة؟ لعنا لا نبعد لو قلنا ان الاجيال الاسلامية التي اعقبت جبل الصحابة حرصت على استعادة طور متميز من مسار الاسلام كان فيه الحوار بين الوحي والتاريخ قائما. غير ان هذه الاستعادة لم تنفك واني لها ذلك عن المؤثرات الثقافية والمعرفية والاجتماعية التي طبعت المجتمعات التالية لمجتمع الدعوة. ولذلك، فان ما نقله لنا المفسرون وعلماء القرآن وعلماء الحديث عن حال الرسول انما يعكس، عند الفحص، تمثلا معيننا لذاك الطور المتميز. ومن ابرز خصائص هذا التمثل ان فهم الوحي فهما ماديا لا مجازيا ((206)).

وعندئذ تحدثوا عن ثقله ((207)) وشدته على النبي، والذي بدا في نظرهم كأنه يعاني من حالة مرضية ((208)).

هيئة النبي اثناء نزول الوحي وجلى بعد هذا، ان الهيئة التي يكون عليها النبي(ص) في لحظات تقبل الوحي لم تكن غريبة عن مجتمع يسكنه المقدس بشتى اشكاله، ويغلب عليه الاعتقاد في الكائنات اللامرئية وما تمارسه من سلطان على البشر. فحالة الغشي التي تنتاب الرسول تذكر دون شك بما يصدر عن الكاهن مثلا من افعال حين يستبد به تابعه ((209)) ، او عندما يسكنه الجن.

ولذلك وصفه ((كفار قريش)) بالمجنون، ورموه بممارسة السحر والكهانة. ولكن القرآن براه من ذلك كله: (فذكر فما انت بنعمت ربك اهن ولا مجنون).

ولا مناص لنا من التذكير بان الصورة التي تمثلها القدامى عن الرسول عند تلقي الوحي تضارع على نحو ما صورة انبياء بني اسرائيل لحظة انكشاف الاله لهم، فيأخذ منهم الخوف والرعب ماخذا. فهذا النبي اشعيا يقول: ((... لذلك امتلات حقواى وجعا واخذني مخاض كمخاض الوالدة. تلويت حتى لا اسمع. اندهشت حتى لا انظر. تاه قلبي، وبغتني رعب...)) ((210)).

وهذا النبي دانيال يصف حاله عند رؤيته الملاك: ((... لم تبق في قوة ونضارتي تحولت في الى فساد، ولم اضبطقوة. وسمعت صوت كلامه. ولما سمعت كلامه كنت مسبحا ((211)) على وجهي، الى الارض. واذا بيد لمستني واقامتني مرتجفا على ركبتي وعلى كفي يدي)) ((212)) نتيجة البحث والحاصل من ذلك كله ان حديث القدامى عن حال الرسول عند تقبل الوحي استنادا الى روايات اسباب النزول لا اساس لهن الصحة التاريخية. والذي يقوي طعننا في تلك الروايات حجتان.

الاولى: وهي الاله مفادها ان القرآن نفسه لم يصف البتة حال النبي لحظة نزول الوحي عليه ((213)).

والثانية: ان بعض الروايات المندرجة في هذا المبحث قد اسندت بالاساس الى عائشة وابن عباس. وقد اوضحنا سابقا انهما لا يعدان شاهدين حقيقيين على الوحي المحمدي برمته. ولذلك فان ما يقوله ابن عباس عن الرسول غ عند نزول الاية التسعين من سورة النحل (16) ليس له قيمة تاريخية بما ان هذه السورة مكية. ولا يمكن، في الاحوال كله، ان يكون سن ابن عباس عند نزول السورة اكثر من ثلاث سنوات مما يجعله غير مؤهل بالمرّة لوصف حال الرسول.

وحتى اذا افترضنا ان ما وصف به النبي (ص) صحيح وسلمنا بحقيقة المرويات المنسوبة الى الصحابة، فان ذلك يصطدم بما ينبغي ان يكون عليه المتلقي للوحي من ثبات وهدوء نفسي حتى يستوعب التنزيل ويتمكن من تبليغه بتمامه دون تصرف في صياغته بالزيادة او بالنقصان، مثلما يعتد الموقف السني. فالحالة التي يكون عليها النبي من غشي او سبات او شخوص بصر تتعارض ومقتضيات التبليغ وشروطه الاحتراز عن هذه الروايات. ((214)) لذلك يحق لنا الاحتراز من هذه الاخبار، سواء اصدرت عن بعض الصحابة ام نسبت اليهم في عصر تال لعصرهم. فلا شيء يثبت صحتها التاريخية. واقصى ما يمكن ترجيحه في هذا الباب ان الرسول غ يكون في وضع خاص لا نستطيع وصفه او تحديده عند تلقي الوحي. والمؤكد ان النبي، شأنه في ذلك شأن سائر الانبياء المرسلين، عاش تجربة فريدة اسست ل((حدث تدشيني)) ((215)) متميز عملت الاجيال الاسلامية على استعادته، واعتقدت بانها تعيد بناء المرجع التاريخي للوحي.

ثانيا الفاصل الزمني بين وقوع السبب ونزول الوحي ما يعيننا من هذا البحث محاولة تبين الفاصل الزمني بين السبب سواء من جهة حدوثه في الواقع التاريخي ام من جهة علم الرسول به ونزول الوحي الموافق له استنادا الى اخبار اسباب النزول. وامكن لنا رصد ضربين محددتين للعلاقة الزمنية بين السبب ونزول الوحي، هما: التعاقب الفوري، والتباعد الزمني. وقد اعتمدنا في التمييز بين هذين الضربين جملة من القرائن اللغوية الواردة في الاخبار. ولذلك لم نكتف بما يدل عليه حرف ((الفاء)) سياقيا في تركيب تواتر كثيرا في الاخبار هو ((... فانزل الله تعالى...)) اذ يشير هذا الحرف الى معان عديدة في سياق استعماله من قبيل تعيين ما ترتب على السبب او الاسباب من نازل ومن سرعة نزول الوحي عقب السبب او من معنى التراخي بين السبب حدوثا والوحي المنزل في شأنه.

1- التعاقب الفوري رشحت اسباب النزول بما يشير الى ضمور الفاصل الزمني بين حدوث السبب ونزول الوحي المتعلق به. ويكاد يتحول هذا الضمور الى تزامن بين الطرفين في التحقق التاريخي. ولنا على ذلك شواهد عديدة منها ما يرويها ابن عباس عن سبب نزول الآية 36 من سورة الاحزاب (33) قاتلا: ((ان رسول اللّٰه انطلق يخطب على قناه زيد بن حارثة. فدخل على زينب بنت جحش الاسدية فخطبها. فقالت: لست بناكحته. فقال رسول اللّٰه: فانكحيه. فقالت: يا رسول الله اوامر في نفسي؟ فيبيناهما يتحدثان انزل الله هذه الآية على رسوله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص اللّٰه رسوله فقد ضللا مبينا ((216)).

ولا شك في ان سرعة نزول الوحي كان لها اثر عميق في اثناء زينب بنت جحش عن قرارها بعدم نكاحها من زيد بن حارثة (ت 8 هـ). فضلا عن ذلك فان سرعة نزول الوحي تؤكد صواب راي النبي في خصوص هذا النكاح.

حينما لا يمتلك الرسول جوابا عن مسألة وقد يتحقق التعاقب الفوري بين السبب ونزول الوحي حين لا يملك الرسول جوابا عن مسألة م، فيتعذر عليه حينئذ ابداء موقفه منها. وهذا ما تشف عنه قصة نزول الآية الاولى من سورة المجادلة (58). اذ تقول عائشة: ((... اني لاسمع كلام خولتي بنت ثعلبة ويخفى على بعضه، وهي تشتكي زوجها الى رسول اللّٰه، وهي تقول: يا رسول الله، ابلى شبابي، ونثرت له بطني حتى اذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني. اللهم اني اشكو اليك، قال: فما برحت حتى نزل جبريل (ع) بهذه الآيات:

(قدسمع اللّٰه قول التي ت جادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير)) (62).

وتكون استجابة الوحي فورية حتى في القضايا المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية، مما يقتضي نزول آيات لها معان تشريعية. وهذا ما ينطبق مثلا على سبب نزول الآية: (والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات باللّٰها نعلمن الصادقين) من ذلك قول هلال بن امية: ((يا رسول الله اني وجدت مع امراتي رجلا رايت بعيني وسمعت باذني)). فكره رسول اللّٰه ما جاء به. فقال هلال: والله انني لارى الكراهة في وجهك مما اخبرتك به والله يعلم اني لصادق وما قلت الا حقا. فقال رسول اللّٰه: اما البينة، واما اقامة الحد عليك. فاجتمعت الانصار... فيبينما هم كذلك اذ نزل عليه الوحي. وكان اذا نزل عليه الوحي اربد وجهه وعلا جسده حمرة. فلما سري عنه قال (ع) : ابشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا... ((217)) يوم بدر ويبدو ان سرعة نزول الوحي عقيب السبب حسمت الخلاف الذي نشب بين المقاتلين المسلمين يوم بدر. اذ اختصموا الى النبي في الغنائم. وفي ذلك يقول الصحابي عبادة بن الصامت (ت 34هـ):

((لما هزم الله العدو يوم بدر واتبعتهم طائفة يقتلونهم واحدقت طائفة برسول اللّٰه واستولت طائفة على العسكر والنهب فلما نفي الله العدو ورجع الذين يطلبونهم قالوا: لنا النفل نحن طلبنا العدو وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين احدقوا برسول اللّٰه: والله ما انتم باحق منا. نحن احدقنا برسول اللّٰه لا ينال العدو منه غرة، فهو لن، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب:

والله ما انتم باحق به منا. نحن اخذناه واستولينا عليه فهو لنا.

فانزل الله تعالى: (يسالونك عن الانفال)(الانفال: من الاية1) ((218)) سرعة نزول الوحي ومما يدل على سرعة نزول هذه الاية بسبب آخر ورد في شأنها رواه سعد بن ابي وقاص (ت 55ه) قائلا: ((لما كان يوم بدر قتل اخي عمير. فقتلت به سعيد بن العاص واخذت سيفه.

فاتيت به النبي(ص). فقال: اذهب فاطرحه في القبض.

فرجعت وبني ما لا يعلمه الا الله من قتل اخي واخذ سلمي. فما جاوزت الا يسيرا حتى نزلت سورة الانفال. فقال لي النبي(ص) اذهب فخذ سيفك)) ((219)).

وقد تاتي الاجابة الفورية للوحي استدراكا على نازل سابق من خلال ما ينشأ بين القرآن ومجتمع الدعوة من حوار على نحو ما حدث به البراء بن عازب في شأن سبب نزول جزء من الاية 95 من سورة النساء (4)، اذ يقول: كنت عند رسول اللّٰه. فقال: ادع لي زيدا وقل له ياتي، او يجي بالكنف والدواة، او اللوح والدواة...

ليكتب: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله باموالهم وانفسهم فضل الله المجاهدين با موالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما(النساء:95).

فقال ابن ام مكتوم: يا رسول الله، ان بعيني ضرر، فنزلت قبل ان يبرح: (غير اولي الضرر).

نزول الاية دون معرفة سببها! وقد تبلغ سرعة نزول الوحي مبلغا لا يتصوره الرسول غ نفسه.

من ذلك ان الاية 28 من سورة المطففين نزلت عليه ولم يبلغه سببها. بل نكاد نقف في هذا المثال على تزامن حقيقي بين وقوع السبب ونزول الوحي الموافق له. وهذا ما يبينه قول الامام فخر الدين الرازي: ((جاء على(ع) في نفر من المسلمين. فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا. ثم رجعوا الى اصحابهم.

فقالوا: راينا اليوم الاصلح. فضحكوا منه. فنزلت هذه الاية قبل ان يصل على الى رسول اللّٰه ((220)) تؤكد هذه الامثلة وغيرها ((221)) التعاقب الفوري بين حصول السبب ونزول الوحي المتعلق به. ولنا ان نسال عن دلالات هذه الظاهرة، وعن قيمتها في اخبار اسباب النزول، وفي تصور القدامى للوحي والنبوة.

ان النزول الفوري للوحي عقيب الاسباب الواقعة في التاريخ او اثر علم الرسول به، يجعل من الوحي تابعا او قل خاضعا لاسباب والحوادث خضوعا تام، وهو ما يعني غياب العلاقة الجدلية التي كانت موجودة على عهد النبي بين الوحي والتاريخ. ويعني ذلك كله ان الوحي، بالشكل الذي قدمته لنا اخبار اسباب النزول، ينزل على المقاس بيانا للمشكل

او تعديلا لرأي او تفنيديا لموقف او تاييدا لاجتهاد، كان الوحي، بهذا المعنى، ينتظر حصول الاسباب في الواقع التاريخي كي ينزل.

حدوث الاسباب ونزول الوحي والذي يبدو لنا ان جل الاخبار التي تحقق فيها التعاقب الفوري بين حدوث الاسباب ونزول الوحي اظهرت موقفين للرسول ازاءها:

الموقف الاول: كان فيه محمد غير قادر على البت في ما يعرض عليه من مسائل. فما ان يلوذ بالصمت والترقب حتى ياتي الوحي منجدا.

اما الموقف الثاني: فنرى فيه الرسول مجتهدا برأيه في التماس اجوبة عن بعض القضايا. وعندما يكون اجتهاده غير مصيب يسعفه الوحي سريعا بالحكم الموافق للسبب. ونعتقد ان الغاية من تشديد المفسرين وعلماء القرآن على نزول الوحي اثر الاسباب مباشرة هي تلافي تقدير الرسول في ما يصدر عنه من اقوال او مواقف. ذلك ان تاخر نزول الوحي في مثل هذه الحالات قد يفضي الى العمل باجتهاداته، وهو ما يتعارض مع فهم القدامى للنبوته باعتبار ان النبي معصوم من الخطا.

ومهما يكن من امر، فان القرائن اللغوية الدالة على التعاقب الزمني بين السبب والوحي لا تشير باطلاق الى واقع تاريخي حاصل، بل تعكس تصور القدامى لعلاقة الرسول بالوحي.

ولذلك لاحظنا ان تلك القرائن تذكر في بعض روايات سبب نزول الآية، وتغيب عن روايات اخرى متعلقة بالآية ذاتها ((222)). ومن ثم لا يستبعد ان تكون هذه العلامات اللغوية المبينة للتعاقب في الحدوث بين السبب والوحي من وضع الرواة وعلماء القرآن والمفسرين متى سلمنا بوجود اسباب تاريخية استدعت نزول عدد من آي القرآن.

2- التباعد الزمني:

ميزت صفة ((التباعد)) العلاقة الزمنية بين حصول السبب ونزول الوحي. وهذا ما توضحه بعض اخبار اسباب النزول.

فقد يقع السبب ويعلم به الرسول غ، ولكن يبقى المشكل المعروف عليه معلقا ينتظر جوابا. وفي هذه الحالة يشق الامر عليه، لان ذلك يوفر حجة للخصوم للطعن في نبوته وفي حقيقة تلقيه الوحي من جبريل. ويقتصر مدى هذا التباعد او يطول بحسب الوضع الخاص الذي يكون عليه الرسول لحظة وقوع السبب.

ومما يدخل في هذا الباب ما رواه بعض التابعين عن احتباس ((جبريل عن النبي(ص) حين ساله قومه عن قصة اصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، ولم يدر ما يجيبهم.

ورجا ان يأتيه جبريل بجواب ما سالوه عنه. فقال عكرمة: فابطا عليه اربعين يوما. وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة. وقيل: خمسة عشر يوما. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة ايام. فقال النبي(ص): ابطات على حتى ساء ظني واشتقت اليك. فقال جبريل(ع): اني كنت اشوق، ولكنني عبد مأمور واذا بعثت نزلت، واذا حبست احتبست. فنزلت الاية: (وما ننزل الا بامر ربك) (مريم: 64). وانزل: (والضحى # والليل اذا سجي # ما ودعك ربك وما قلى) (الضحى: 13) ((223)).

حديث الافك وقد يشند انقطاع الوحي على نفس الرسول ((224)) ، حينما يتعلق السبب بتهمة خطيرة رميت بها عائشة. وهذا ما تناوله المفسرون وعلماء القرآن بتوسع في حديث الافك الذي كان سببا في نزول الايات (22 11) من سورة النور (24).

فمماقالته عائشة بعد ان اوشك الاوس والخزرج على الاقتتال بسبب اعتذار الرسول من عبد الله ابن ابي: ((... ويكيت يومي ذلك لا يرقا لي دمع ولا اکتحل بنوم، وابو اي يظنان ان البكاء فالحق كيدي... فبينما هما جالسان عندي وانا ابكي استاذنت على امراة من الانصار. فاذنت لها وجلست تبكي معي ... فبينما نحن على ذلك، اذ دخل علينا رسول اللّٰه ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل. وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شاني شي)) ((225)).

نزول الوحي مرتين في حادثة واحدة ويحدث ان تعظم الهوة الزمنية بين حدوث السبب ونزول الوحي، فتقدر بسنة كاملة. فحسب ما يروي علي بن ابي طالب(ع) متحدثا عن الاية 101 من سورة النساء: سال قوم من التجار رسول اللّٰه، فقالوا: يا رسول الله، انا نضرب في الارض فكيف نصلي؟ فانزل الله: (واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة).

ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي(ص) فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد امكنكم محمد واصحابه من ظهورهم. هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: ان لهم اخرى مثلها في اثرها. فانزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين:

(ان خفتن ان يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) (النساء: 101).

فهذا الخبر يبين ان الوحي قدم، في مرحلة اولى، اجابة جزئية عن السؤال الملقى على الرسول. ثم انقطع الوحي.

وعندما هم((اهل الشرك)) بما هم وا به من غدر بالرسول وباصحابه، نزل، في مرحلة ثانية، تمام الاية. وغير خاف ان القول بوجود فاصل زمني بين قسمي الاية مقدر بحول لا يمكن قبوله، لان دلالة الاية وتركيبها النحوي لا يستجيبان للفصل الذي مال اليه المفسرون وعلماء القرآن في ما ارتضوه من سبب نزول ((226)).

امتحان الرسول وما نود بيانه ان القدامى التمسوا في هذا التباعد الزمني فائدة مهمة هي اثبات قدرة النبي على مواجهة ما يعرض له من عقبات او مسائل يستعصي عليه حلها رغم ما في العملية من مشقة على النفس. فهذا التباعد اذن يشكل اختبارا حقيقيا للرسول وامتحانا له في تبليغ الرسالة.

النتيجة ان ما نخرج به بعد استعراضنا للشكليات المعبرين عن الفاصل الزمني بين وقوع السبب ونزول الوحي و رغبة المفسرين و علماء القرآن في الالمام بدقائق الوحي كلها من جهة التقبل. واثبتوا، فهذا المقام، غلبة التعاقب الفوري بين السبب والوحي الموافق له ((227))، وهو ما ينسجم مع تصورهم لانزال القرآن من ((اللوحة المحفوظ)) . فالقرآن، في تقديرهم، انزل دفعة واحدة الى السماء الدنيا، ثم نزل منجما بحسب النوازل والحوادث ((228)) . ويعني ذلك كله ان الاسباب التاريخية المباشرة للتنزيل اخرجت القرآن من وجود اول كامن الى وجود ثان ظاهر. وعلى هذا النحو اسس القدامى منظومة عن الوحي والنبوة منسجمة العناصر توافق فيها مقدماتها ومسلّماتها غاياتها ومقاصدها. ولكن متى انعمنا النظر في حقيقة هذا الانسجام وتدبرنا مرجعيته المعرفية، بان لنا انسجاما شكليا .

ثالثا اهم وظائف الوحي من خلال اخبار اسباب النزول ان الاصل في الوحي ان ينزل بيانا لقدرة الله و ارادته وتذكيرا بوعده ووعده و اخبارا بتاريخ الامم الماضية مع انبيائها، الخ. ويبدو ان جل ما نزل في هذه المواضع لم تستدعه اسباب تاريخية مباشرة. ولذلك غلبت على اسباب النزول مباحث تصف علاقة الرسول بصحابته وبخصومه من قريش واهل الكتاب، فضلا عما له صلة بسيرته ومغازيه. وفي هذا السياق بدا الوحي في تصور القدامى له ناهضا بوظائف اهمها: الوظيفة التاديبية، والوظيفة التبريرية 1 الوظيفة التاديبية:

تتمثل هذه الوظيفة في نزول الوحي تنفيذيا لموقف او رأي اعتقد الرسول غ صوابه. وهذا ما يجلوه مثلا سبب نزول الاية 34 من سورة النساء، اذ يقول مقاتل بن سليمان: ((نزلت هذه الاية في سعد بن الربيع، وكان من الاتقياء، وامراته حبيبة بنت زيد بن ابي زهير وهما من الانصار. وذلك انها نشزت عليه فلطمها. فانطلق ابوها معها الى النبي(ص). فقال: افرشته كريمتي فلطمها! فقال النبي(ص): ارجعوا، هذا جبريل(ع) اتاني. وانزل الله تعالى هذه الاية. فقال رسول اللّٰه: اردنا امرا و اراد الله امرا، والذي اراد الله خير. ورفع القصاص)) ((229)) .

فقد انتصر الرسول لبنت زيد واذن لها كي تقتص من زوجها. الا ان اجتهاده فنده الوحي بسرعة داعيا الى علاقة اجتماعية يكون فيها الرجال قوامون على النساء. والواضح، هاهنا، ان مجتمع الدعوة لم يكن مهيا لقبول رأي الرسول. ذلك ان الاعراف الاجتماعية السائدة وقتئذ والنظام التراتبي الذي يخضع له المجتمع من جهة العلاقات بين الرجل والمرأة كانت تحول دون اعطاء الحق للمرأة في الاقتصاص من الرجل. وهذا ما يفسر تخلي الوحي عن تصور للعلاقات الاسرية سابق لعصره . ((230)) .

حكم الرسول لولا الوحي وكاد الرسول غ يحكم براهيه دون تحكيم كتاب الله حينما اراد البت في قضية سرقة عرضت عليه. ((ذلك ان رجلا من الانصار يقال له طعمة بن ابيرق، احد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جارية له: قتادة بن النعمان. وكانت الدرع في جراب فيه دقيق. فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، حتى انتهى الى الدار وفيها اثر للدقيق. ثم خباها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين. فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما اخذها وما له بها من علم.

فقال اصحاب الدرع: بلى والله لقد ادلج علينا فاخذها. وطلبنا اثره حتى دخل داره. فراينا اثر الدقيق. فلما ان حلف تركوه واتبعوا اثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودي فاخذوه.

فقال: دفعها الى طعمة بن ابيرق. وشهد له ناس من اليهود على ذلك. فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة انطلقوا بنا الى رسول اللّٰه. فكلّموه في ذلك وسالوا ان يجادل عن صاحبهم. وقالوا: ان لم تفعل هلك صاحبنا واقتضح وبرى اليهودي، حتى انزل الله تعالى: (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق) (النساء:105) ((231)).

وكانت للرسول اجتهادات غير مصيبة في قرارات عديدة لها ارتباط متين بمغازيه والمواجهات بينه من جهة وبين قريش واليهود من جهة اخرى. وقد يتوفر له اكثر من حل لمجابهة وضع ما، وهذا ما حصل له في معركة بدر مع الاسرى.

وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر (ت 73هـ) مبينا سبب نزول الاية 67 من سورة الانفال(8): ((استشار رسول اللّٰه في الاسارى ابا بكر. فقال: قومك وعشيرتك، خل سبيلهم، واستشار عمر فقال: اقتلهم. ففداهم رسول اللّٰه. فانزل الله تعالى:

(ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض).

واعترض الوحي على النبي حين اذن ((للمنافقين)) بالعودة وعدم الخروج الى الجهاد مما كان سببا في نزول الاية 43 من سورة التوبة ((232)). وربما لم يحسن النبي ايضا معاملة بعض اصحابه مثلما حصل له مع ابن ام مكتوم (ت 23هـ).

فادى ذلك الى نزول الايتين الاولى والثانية من سورة عبس . ((233)) وهناك راي آخر يتبناه الشريف المرتضى، واكثر الشيعة، ما روي عن الامام الصادق(ع): ((انها نزلت في رجل من بني امية، كان عند النبي(ص) فجاء ابن ام مكتوم، فلما رآه تقدر منه وجمع نفسه وعبس واعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وانكره عليه)) ((234)).

((ان الرواية المنسوبة الى الامام الصادق(ع) في ان الحديث عن رجل من بني امية، لا تتناسب مع اجواء الايات، لان الظاهر من مضمونها ان صاحب القضية يملك دورا رساليا، وتحمل مسؤولية تزكية الناس)) ((235)).

2- الوظيفة التبريرية:

ينزل الوحي احيانا لتبرير قول او سلوك ياتيه الرسول غ او بعض صحابته. ويتم ذلك من احد طريقين: التعليل او الاثبات. فمن امثلة التبرير الحاصل من طريق التعليل خبر سبب نزول الاية 52 من سورة الحج (22) في قصة معروفة عند القدامى بقصة ((الغرائق العلى))، وفيها ثلاثة آراء:

الراي الاول: فعندما ((راى رسول اللّٰه تولى قومه عنه، وشق عليه ما راى من مباحثهم عما جاءهم به، تمنى في نفسه ان ياتيه من الله تعالى ما يقارب به بينه وبين قومه، وذلك لحرصه على ايمانهم. فجلس ذات يوم في ناد من اندية قريش كثير اهله، واحب يومئذ ان لا ياتيه من الله شي ينفرون عنه.

وتمنى ذلك. فانزل الله تعالى سورة: (والنجم اذا هوى).

فقرأها رسول اللّٰه حتى بلغ: (افرايتم اللات والعزى (#) ومناة الثالثة الاخرى).

لقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمناه:

((تلك الغرائق العلى وان شفاعتهن لترتجى)). اي: انهن طيور جميلة ذات منزلة رفيعة، ومنها ترتجى الشفاعة ((236)). فلما سمعت قريش ذلك فرحوا. ومضى رسول اللّٰه في قراءته. فقرأ السورة كلها، وسجد في آخر السورة. فسجد المسلمون لسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين... وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا، وقالوا: قد ذكر محمد آلتهنا باحسن الذكر... هذه تشفع لنا عنده. فان جعل لها محمد نصيبا فنحن معه. فلما امسى رسول اللّٰه اتاه جبريل (ع). فقال: ماذا صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن اللّٰه سبحانه، وقلت ما لم اقل لك. فحزن رسول اللّٰه حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كبيرا. فانزل الله هذه الاية:

(وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى لى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّٰه آياته والله عليم حكيم) (الحج:52) ((237)).

الراي الثاني: انكار هذه الحادثة مطلقا، وجعلها من الاساطير والخرافات او الاسرائيليات في التفسير، يقول صاحب تفسير الامثل:

((ذكر الباحثون ضعف رواته وعدم الثقة بهم، ولا دليل على انه من رواية ابن عباس)) ((238)).

الراي الثالث: ان النبي (ص) كان يتلو سورة النجم وبلغ (افرايتم اللات والعزى # ومناة الثالثة الاخرى) استغل بعض المشركين المعاندين هذه الفرصة فنادى بلحن خاص: ((تلك الغرائق العلى، وان شفاعتهن لترتجى)) فاشكلوا على الناس بالتشويش على كلام الرسول ((239)) تبرير الرسول اما التبرير من جهة الاثبات، فمثاله ما يرويه عبد الله بن مسعود عن سبب نزول الاية 68 من سورة الفرقان (25)، اذ يقول: ((سالت رسول اللّٰه: اي الذنب اعظم؟ قال: ان تجعل لله ندا وهو خلقك. قال: قلت: ثم اي؟ قال: ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك. قال: قلت: ثم اي؟ قال: ان تزاني حليلة جارك.

فانزل الله تعالى تصديقا لذلك: (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثمًا) (الفرقان:68).

ففي هذه الحالة وافق قول الرسول غ منطوق الوحي. ذلك ان وجوه ارتكاب الذنب، حسب الرسول، ثلاثة: الشرك بالله، والقتل بغير وجه حق، والزنى. وهذه الوجوه الثلاثة تضمنتها الآية من خلال تكرر ثلاثة افعال منفية هي: ((لا يدعون))، و((لا يقتلون))، و((لا يزنون)).

وجلى ان الوظيفة التبريرية التي علقها المفسرون وعلماء القرآن بالوحي لم تقتصر على اجتهادات الرسول، وانما تعدتها الى ما سيؤسس لمبحث من مباحث علوم القرآن، ونعني به ((مبحث الموافقات)). وانموذجه المشهور عندهم ((موافقات عمر)) ((240)). ولئن اقتصرنا تلك الموافقات على اقوال نطق بها عمر فكرسها الوحي قرآنا، فان الرجل اتى افعالا منافية مثلا لبعض احكام الصوم مما ادى الى نزول آية الرخصة: (احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وان تم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالان باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) (البقرة: 187) ((241)).

وقد يبرر الوحي تصرفا مشينا يصل الى حد القتل، فيجعله من باب الخطا لا من باب العمد. وهذا ما يبسطه الخبر الموضح لسبب نزول الآية 92 من سورة النساء ((242)).

رصد ثلاث دلالات ان هاتين الوظيفتين اللتين نهض بهما الوحي تعويلا على بعض اخبار اسباب النزول، مكنتنا من ان نرصد منها ثلاث دلالات:

اثبات الوحي اولا: اثبات تاريخية الوحي المحمدي. فعلى الرغم من ان الوحي، لدى عامة المسلمين، مفهوم مفارق، فانه في الوقت نفسه منغرس في واقع العلاقات الاجتماعية والسياسية، ومتعلق بمختلف المؤسسات الثقافية المعبرة عن معاش الناس واجتماعهم. ولذلك، فان نزول الايات على اسباب دليل ساطع عندهم على خاصية التنجيم في القرآن. فهو لم ينزل مفارقا ((الا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شي بوقت معين)) ((243)). وكان نزول الوحي في رأي قتادة ((بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها)) ((244)).

ولا شك في ان الاقرار بتاريخية الوحي يترتب عليه التسليم بامرير هما:

1- تاريخية الاحكام القرآنية المستخرجة من النص الديني.

2- تاريخية الاطارين الثقافي والمعرفي اللذين نزل فيهما الوحي. فقد ((يكون النص القرآني في نزوله اجاب عن اوضاع ظرفية سال عنها المسلمون الرسول، ولم يحتفظ لنا في زمن الجمع الا بما اجاب به الوحي، وقد قطع عن السؤال البشري، فبدت الاحكام التي اجاب بها الوحي مغلقة وصماء استعصت على الحوار، وقصرت عن التعايش مع المشاغل الحية في المجتمعات اللاحقة. ومن هذه الزاوية انسلت الاعراف من غير ان يحس المتدبرون في النص بوجودها، لانهم افراد من هذه المجتمعات يؤولون بحسب احوالهم الثقافية)). ((245)) غير ان المفسرين والفقهاء القدامى لم يكن يعينهم من تاريخية الوحي الا ما يقيم البرهان على النزول المنجم للقرآن، ولم يجرؤوا على اخضاعه كله لهذه الخاصية المميزة للوحي.

والعلة في ذلك على ما يبدو خوف الاجيال التي اعقبت جيل الدعوة من مراجعة الاحكام القرآنية، ومن بيان نسبتها، ومن ثم تاريخيتها، وهو ما قد يدعوهم الى تقويض ما اعتقدوا انه منظومة احكام قرآنية مطلقة، ولذلك شدد القدامى، اكثر ما شددوا، على الجانب المفارق في الوحي حتى لا يطعن في حقيقة النبوة.

دور الرسول في تلقيه للوحي ثانيا: تأكيد المفسرين وعلماء القرآن الدور المهم للرسول في تلقي الوحي. والحجة في ذلك ان محمدا بلغ الجماعة المؤمنة الوحي كله المنزل عليه، بما فيه الايات المنطوية على لوم له. وفي ذلك اشارة على امانته في التبليغ وعلى عدم تدخله في الصياغة اللغوية للنازل عليه، حتى ان عائشة نسب اليها القول التالي: ((من حدثك ان محمدا كتم شيئا من القرآن فقد كذب)) ((246)).

والحاصل ان في اخبار اسباب النزول بيانا لمواخدة الوحي الرسول على بعض اجتهاداته مما يوفر ضمانات كافية للقدامى لاثبات اهمية دور الرسول في تلقي الوحي وتبليغه.

ويمكن هذا التصور من الرد على الطاعنين في النبوة منذ وقت مبكر. ودوننا قول ابن عباس متحدثا عن الاية 14 من سورة المؤمنون (23): ((ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان يكتب هذا الايات لرسول اللّٰه. فلما انتهى الى قوله تعالى: (خلقا آخر) عجب من ذلك، فقال: (فتبارك الله احسن الخالقين) فقال رسول اللّٰه: اكتب فهكذا نزلت. فشك عبد الله وقال: ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى الى كما يوحى اليه، وان كان كاذبا فلا خير في دينه. فهرب الى مكة. فقيل: انه مات على الكفر. وقيل: انه اسلم يوم الفتح)) ((247)).

والحق ان القول بسلبية دور الرسول يتفق ونزول الوحي بلغة العرب وسننها في الاداء والتواصل والابلاغ. ولا شك في ان الوحي يستدعي وجود هذا الوسيط اللغوي الذي يكون فيه الرسول مساهما بشكل من الاشكال في نقل الوحي الى قرآن عربي. ((248)).

بشرية الرسول وثالثا: ان الوظيفتين اللتين اداهما الوحي في اخبار اسباب النزول دللتا بوضوح على بشرية الرسول غ وبينتا حدود اجتهاداته فهو كغيره من البشر، يخطى ويصيب، يحكم عقله ويخضع لرايه الذي يراه صوابا. فهو اذن لا يستطيع معرفة محتوى الوحي المنزل عليه بصفة قبلية ((249)). فعلا فان القرآن يقدم الرسول في صورة تاريخية واقعية بعيدة جدا عن مظاهر التضخيم والمبالغة، وذلك على خلاف ما ترويه كتب السيرة النبوية حين اسندت اليه صفات خارقة، ونسبت اليه معجزات سواء قبل البعثة ام بعدها ((250)).

الوحي والدين والمهم بالنسبة لنا ان الوحي من البعد الانترولوجي ((251)) ظاهرة لصيقة بالدين، يمكن الوقوف على خصائصها واثارها في الواقع التاريخي من ناحية، وعلى ما تؤديه من دلالات وما تنهض به من وظائف من ناحية اخرى. فللوحي، من هذا المنظور، معقوليته الخاصة ((252)) التي تختلف دون شك عن معقوليتنا الحديثة والمعاصرة. ولذلك يصبح السؤال عن اصل الوحي ومنبعه غير ذي جدوى ((253)). . ونعتقد ان الاستئناس بالمنهج الانترولوجي يساعد على اقتراح تعريف للوحي عموما. وهذا ما قام به بعض المفكرين المعاصرين حينما دعوا الى فهم الوحي باعتباره ظاهرة لغوية ثقافية.

اذ)) يمكننا القول بوجود وحي في كل مرة تظهر فيها لغة جديدة، وتجي لكي تعدل جذريا من نظرة الانسان عن وضعه، وعن كينونته في العالم، وعن علاقته بالتاريخ، وعن فعاليته في انتاج المعنى. ان الوحي يعني حدوث معنى جديد في الفضاء الداخلي للانسان... وهذا المعنى يفتح امكانيات لا نهائية او متواترة من المعاني بالنسبة للوجود البشري)) ((254)). .

وتتمثل قيمة هذا التعريف للوحي في مواضعه بين انماط الوحي التوحيدي في الديانات الكتابية الثلاث المجسمة اساسا في نصوص التوراة والانجيل والقرآن. فضلا عن ذلك يقدم التعريف ذاته رؤية جديدة لمسألة معارضات القرآن في الفكر الاسلامي ((255)). .

خاتمة البحث وخلاصة ما نصل اليه في خاتمة هذا البحث ان اخبار اسباب النزول عرفتنا بتصور القدامى للوحي، وبتمثلهم لمرحلة الدعوة المحمدية. حيث كانت الثقافة العربية تنهض على المشاهدة طوال القرن الهجري الاول، ولم تتحول بعض العلوم الاسلامية الى نصوص مكتوبة الا في العقد الاخير من النصف الاول من القرن الثاني، اذا استثنينا النص القرآني الذي اكتمل كتابته اثناء خلافة عثمان بن عفان ((256)). . وقد وفر في نفوسهم ان ما نقلوه عن حال النبي عند تقبل الوحي وما بينوه من علاقات زمنية بين وقوع السبب ونزول الوحي هو الحقيقة التاريخية عينها. فلا نبالغ اذا قلنا ان الحفاظ على الوحي كان التعويل فيه على الرواية الشفوية التي كان لها اثرها في اختلاف القراءات وتباين المصاحف، ذلك ان الوحي ظل خاضعا لبعض التغييرات التي شرعها الرسول اثناء حياته، واقتضتها ظروف الرواية الشفوية ((257)). . وظنوا انهم بهذا العمل يستعيدون على صعيد الحكمي فترة انموذجية من تاريخ الاسلام. ولكن ((ليس الخبر كالعيان)) على حد عبارة الجاحظ المشهورة.